مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب المجلد10 العدد 1ب 2013، ص ص 455- 483

دراسة تحليلية في الرواية الفلسطينية: قراءة في الشخصية النسوية، المحورية والثانوية

فتحي أبو مراد

ملخص

ترمي هذه الدراسة لرصد شخصية المرأة، وتحليل جوانبها المختلفة في بعض الروايات الفلسطينية المختارة، إذ إن شخصية المرأة تكتسب أهمية خاصة ودوراً ملحوظاً في حركة الواقع الفلسطيني، لاسيما في جانبه النضالي خاصة. والرواية الفلسطينية معنية بشكل أساس بتصوير حركة هذا الواقع.

وقد عمدت الدراسة إلى استقصاء دور المرأة في الرواية الفلسطينية، سواء على مستوى المبنى أم المعنى. فلحظت أن المرأة قد مارست دور البطولة في بعض الروايات، وتراجع دورها في بعضها الآخر لتكون شخصية تابعة. ثم رصدت الخصائص الفنية التي تجسدت في شخصية المرأة في الرواية الفلسطينية، ورصدت كيفيات خلق هذه الشخصية والتجليات المختلفة التي تراءت بها، ومدى قدرة الكاتب على شحنها بالطاقة والإيحاء والدلالة.

المقدمة

تحاول هذه الدراسة أن تقارب شخصية المرأة – كما تعرضها بعض الروايات الفلسطينية، لاسيما شخصية المرأة الفلسطينية في تعاملها مع واقعها المعيش.. واقع المقاومة والتشبث بالأرض.. وقضية الأرض من جوانبها المختلفة، سواء داخل فلسطين أم خارجها. ففي الداخل نجد الأرض الفلسطينية مهددةً بالاغتصاب والمصادرة، ونجد شخصية/المرأة تواجه رحلة العذاب الطويلة وصراع البقاء والوجود، أما خارج الأرض الفلسطينية في المهاجر والمنافي العربية والعالمية، فنجد شخصية/المرأة تواجه تحديات المقاومة، وتحديات الغربة فتصبح حربها حربين.

لذلك فقد اختارت الدراسة ثلاث روايات مختلفة لتحقيق هذه الغاية، هي رواية (سنوات العذاب) لهارون هاشم رشيد، ورواية (حفنة تراب) لناصر الدين النشاشيبي، ورواية (البكاء على صدر الحبيب) لرشاد أبو شاور. وقد كان لهذا الاختيار مسوغاته الموضوعية والفنية. فمن ذلك مثلاً: أن هذه الروايات الثلاثة -على أهميتها- لم تحظَ بحظ وافر من الدراسة الفنية الكافية، لا

© جميع الحقوق محفوظة لجمعية كليات الآداب في الجامعات الأعضاء في اتحاد الجامعات العربية 2013.

* كلية الحصن الجامعية، جامعة البلقاء التطبيقية، إربد، الأردن.

سيما روايتي: سنوات العذاب وحفنة تراب. أضف إلى ذلك أن شخصية المرأة نفسها في الرواية الفلسطينية لم تحظ – بدورها- بحظٍ كاف من الدراسات الفنية المتخصصة المنفردة، لا سيما في الروايات الثلاثة المذكورة. علماً أن المرأة الفلسطينية لعبت دوراً فعّالاً -إلى جانب الرجل- في النضال ومقاومة العدو والتشبث بالأرض ، ومساندة الرجل في نضاله، بشكل مباشر أو غير مباشر، تمثّل في تقديم العون النفسي له وتشجيعه على الصمود، ورعاية الأبناء أثناء غياب والدهم، أو في حال استشهاده، ومن ثم القيام بمهمة إعداد الأبناء وتنشئتهم على ثقافة المقاومة وتحضيرهم لإكمال مهمة والدهم في النضال والمقاومة والتشبث بالأرض.

لذلك فقد اختارت الدراسة روايتي (سنوات العذاب وحفنة تراب) لدراسة شخصية المرأة في الداخل.. على أرضها الفلسطينية بغية تصوير رحلة عذابها ومطاردتها وصمودها أمام كل محاولات العدو للاستيلاء على أرضها الفلسطينية. أما رواية (البكاء على صدر الحبيب)، فتصوّر أبعاد شخصية المرأة وقضيتها الوطنية خارج الوطن المحتل.

كما عمدت الدراسة إلى اختيار روايتين من الروايات الثلاثة – محور الدراسة - لاستجلاء أبعاد شخصية المرأة وتحليلها وبيان دلالتها، عندما تنهض المرأة بدور الشخصية المحورية النامية في الرواية – كما ظهر في روايتي: (سنوات العذاب وحفنة تراب). كما اختارت الدراسة رواية: (البكاء على صدر الحبيب) لمقاربة أبعاد شخصية المرأة ودلالاتها، عندما تنهض هذه المرأة بدور الشخصية الثانوية التابعة.

وقد ابتدأت الدراسة بمهاد نظري موجز، تناول مفهوم الشخصية القصصية، وسماتها وأبعادها المختلفة. ثم دلفت الدراسة، في جانبها التطبيقي، إلى تناول بنية الشخصية الفلسطينية/المرأة، راصدةً أنواعها المختلفة ودلالتها وإيحاءاتها في صراعها المستميت مع واقعها المعيش ولأجل قضيتها الوطنية، لافتةً إلى خصوصية هذه القضية وأهميتها، وهذا قد انعكس بدوره على طبيعة الشخصية/المرأة، وأكسبها أهمية خاصة ووضعاً مميزاً في الصراع، مما جعل سمة الواقعية سمة ظاهرة في طبيعة المرأة في الرواية الفلسطينية، عامةً. وتوقفت الدراسة عند هذه السمة / الواقعية، وحاولت أن تكشف صنيع الكاتب الفلسطيني في خلع ما تقتضيه واقعية القضية وواقع الشخصية المعيش من سمات الواقعية على شخصية المرأة في الرواية، كما حاولت أن تكشف صنيعه عندما يأخذه الحس الرومانسي الحالم إلى المكان المفقود، في شطحات رومانسية تنعكس آثارها على رسم الشخصية في بعض المواضع.

ثم تناولت الدراسة دور المرأة في الرواية الفلسطينية، فلحظت دورها المحوري في روايتي (سنوات العذاب وحفنة تراب)، والسمات الفنية التي اكتسبتها نتيجة ممارستها لهذا الدور، كما

لحظت دورها الثانوي في رواية: (البكاء على صدر الحبيب)، حين تضحي شخصية ثانوية تابعة للآخرين، والسمات الفنية التي تظهر في شخصيتها.

وأخيراً فقد توقفت الدراسة طويلاً عند رصد شخصية المرأة في الروايات الثلاثة - محور الدراسة – وقرأت دلالات شخصيتها، وطرق رسمها وتقديمها. فلحظت أن شخصية المرأة ظهرت ضمن إطارين اثنين، الأول: داخل الإطار الأسري، مثل شخصية المرأة (الأم أو البنت). والآخر خارج هذا الإطار الأسري، نحو شخصية المرأة الفلسطينية، وشخصية المرأة العربية، وأخيراً شخصية المرأة اليهودية أو الصهيونية.

وبعد: فهذه محاولة متواضعة لدراسة شخصية المرأة في بعض الروايات الفلسطينية، اتخذتْ من هذه الروايات نفسها أساساً في الرصد والتحليل وإطلاق الأحكام، فإن أصبتُ فيها شيئاً من نجاح، فهذا فضل من الله ونعمة، وأما دون ذلك فحسبي أني حاولت.

الشخصية الإنسانية في الرواية

تعد الرواية من أهم الفنون الأدبية اللصيقة بهموم الناس ومشكلات الحياة المعيشة. وتتراءى غاية الرواية في التعبير عن الواقع وتفسيره ونقده بشكل ممتع. فالأدب ما هو إلا تفسير عميق للحياة. والمحك الحقيقي لعظمة الرواية أو لخلود الأثر الأدبي-على اختلاف الأساليب والموضوعات- هو "مدى اتصاله بالحقائق التي تجعل الحياة الإنسانية أكثر عمقاً وأوسع شمولاً، ومقدار ما فيه من القيم التي تبرز النواحي الروحية في الحياة ناصعة"[1]. لكن العبرة في الرواية ليست في الفكرة أو الموضوع أو المادة التي تقدمها، وإنما في كيفية تقديم هذه المواد بشكل جمالي (استطاطيقي)، ومدى ملامستها للوتر الحساس في الإنسانية. والرواية -كما يرى رينيه ويليك- إنشاء نثري ممتد[2]، شأنها شأن أي فن قصصي تقوم على أربعة عناصر رئيسة هي[3]: الشخصيات، والحبكة (سلسلة الأحداث)، والبيئة، ثم الأسلوب. غير أن الشخصيات تضطلع بأهمية خاصة، إذ إنها هي صانعة الأحداث، ولا يمكن فصل الأحداث/الحبكة (The Plot) [4] عن الشخصيات(People)[5] إلا فصلاً مؤقتاً. لذا فالشخصية تكتسب أهمية كبيرة ودوراً مميزاً في العمل القصصي عامة، وفي العمل القصصي الفلسطيني خاصة. وذلك بفعل التجربة الحياتية التي تعانيها الشخصية الفلسطينية في صراعها المرير مع واقعها المعيش، سواء على أرضها الفلسطينية المحتلة، أم خارج أرضها: في المنافي العربية والعالمية. فالأحداث التي تعانيها الشخصية في العمل القصصي الفلسطيني هي أحداث واقعية معيشة، تعاني في أتونها الشخصية صراعات مميتة.

وقبل أن نمضي بعيداً مع شخصية المرأة في الرواية الفلسطينية، أرى أنه من الضروري أن نتعرّف مفهوم الشخصية بشكل عام، وأبعادها، وطبيعتها، كي تتجلى لنا هذه المفاهيم أولاً، ومن ثم نستطيع أن ندرس على ضوئها شخصية المرأة في الرواية الفلسطينية.

تعدّ الشخصية من أهم العناصر الفنية في الرواية، وهي محور الأفكار والمعاني والآراء، وهي صانعة الحدث، وهي تشكل العنصر الوحيد الذي يتقاطع مع كل العناصر الفنية في الرواية. ولكي تكون الشخصية فاعلة في الرواية، لابدّ للكاتب من أن يحسن رسمها، وأن يكون قادراً على بث الحياة والروح فيها، بحيث تظهر وكأنها شخصية حية، تتصرف بحرية، وتتنازعها كل عوامل الضعف والقوة التي تتنازع الإنسان، وتمتزج فيها تناقضات الحياة من خير وشر وغير ذلك. وكأنها شخصية حية واقعية تعيش بيننا، فلا تبدو شخصية خارقة تعيش فوق الواقع، أو شخصية منكمشة أقل من الواقع.

ويوضح بعض النقاد مفهومه للشخصية، فيقول: إنها " تلك الشخصية التي يصّور الكاتب كل أبعادها، فلا يقف عند مستوى الحوادث وتعاقبها واتصالها بعضها ببعض، لكنه يغوص في أعماقها ليكشف أزماتها، ودوافع سلوكها. وعلى القاص أن يجمع الحالات من مصادر شتى ثم يمارس فيها فاعليته الموحِّدة ليخلق شخصاً ليس له وجود بين الناس، لكنه من خلقه هو"[6].

وهذا المفهوم للشخصية يتطابق تماما مع روح الشخصية وسلوكها، والمتأمل في الرواية بشكل عام يلحظ أن كتّابها قد خلقوا شخصيات، أضحت معروفة بصفاتها وخصائصها، مثل شخصية (هاملت) مثلاً التي أوجدها شكسبير، في مسرحية (هاملت)، ووظفها ت.س. إليوت في نظرية (المعادل الموضوعي)[7].

ويوضّح د.إبراهيم الفيومي ملامح هذه الشخصية الإنسانية في القصة وصفاتها -وأستميح لنفسي عذراً في اقتباس قوله كاملاً في هذا الموضع لأهميته ودلالته على طبيعة هذه الشخصية-، إذ إن حديثه جاء مفصلاً ودالاً دلالة وافية على ذلك، من هنا تراءى لي أن أثبته كاملاً. يقول الفيومي: وإذا "كنا نفترض أن الشخصية الإنسانية محكومة بعلاقات متشابكة ضمن إطار البيئة بمفهومها الواسع، فإننا نتوقع أن يمتزج في هذه الشخصية عنصرا الخير والشر قي صورة جدلية عبر تفاعل مستمر: فهي تحب وتكره، وتحقد وتصفح، وتثور ثم تهدأ ثورتها، وتتوالى عليها هذه التقلبات عبر الزمان والمكان. ويقودنا هذا الافتراض إلى القناعة التامة، بأن مثل هذه الشخصية، لا يمكن أن تكون معزولة عن حركة المجتمع لا تفكر إلاّ في ذاتها كما ينفي عنها الصفات المطلقة، كأن تكون، بيضاء ملائكية، أو سوداء شيطانية، وإنما تتأرجح بينهما، فيغلب عنصر الخير في لحظة معينة، ثم تنعكس الآية في لحظة أخرى ليغلب العنصر الآخر النقيض. كما يفترض أن تكون الأفعال وردودها، والأقوال التي تصدر عن الشخصية الإنسانية مصوّرة لأبعادها المختلفة بعمق،

ملائمة لمواقعها في الرواية، وموقفها من المشكلات المطروحة، فلا تصدر عنها أفعال خارقة يعجز عنها عدة رجال ولا أقوال فوق مستواها أو دونه، وما دامت هذه الشخصية متحركة متغيرة، فلابد أن تنكشف أبعادها تدريجياً، فتبدو دائرية وليست مسطحة. وإذا افتقدت الشخصية كل الصفات أو معظمها، فقد تأتي ممتعة، لكنها ليست مقنعة، تعيش فوق السطح، ولا تسعى فوق أرض الواقع. وكثيراً ما يكون الأديب قاصراً عن إدراك هذه السمات الفنية للشخصية الإنسانية، من خلال تصوره لإمكانية وجود القيم المطلقة في واقع الحياة. مما ينعكس على شخصياته، فتقف في معسكرين متناقضين لا ثالث لهما. وقد يقوم بعملية إسقاط ذهني على هذه الشخصيات فتتحول إلى أبواق تردد آراء الكاتب في الحياة والناس فتولد ميتة. وإذا أقبل القراء عليها بعض الوقت جرياً وراء التسلية، فإنه لن يكتب لها الخلود عبر القرون، شأن الأعمال الإنسانية التي قاومت عوامل الزمن والنسيان"[8].

والشخصية الإنسانية في الرواية لا تقاس بمقدار المساحة التي تشغلها في الرواية، وإنما في الدور الذي تقوم به، وما يرمز إليه هذا الدور، ومدى الأثر الذي تتركه في القارئ، ومدى التساؤلات التي تطرحها.

بناء الشخصية: رسمها وأنواعها

ثمة طريقتان رئيستان[9] لبناء الشخصية ورسمها في العمل القصصي. الأولى الطريقة (التحليلية)، التي تقوم على السرد المباشر في رسم جوانب الشخصية كلها، حيث يقوم الراوي العالم بكل شيء، برسم الشخصية باستخدام ضمير الغائب (كان، وكان،..) فقد يرسم الشخصية من الداخل والخارج، فيشرح عواطفها وأحاسيسها، ويعقّب على تصرفاتها، ويفسّر الآخر. وقد يعطي رأيه صريحاً فيها. أما الطريقة الأخرى، فهي الطريقة (التمثيلية) غير المباشرة، التي تقوم على الحوار، حيث ينحّي الكاتب نفسه جانباً، ونتعرّف صفات الشخصية من خلال الحوار القائم في الرواية بين الشخصيات المختلفة، حيث تقوم الشخصية بتقديم نفسها بنفسها، باستخدام ضمير المتكلم من خلال حوارها مع غيرها، أو من خلال حوار النفس أو الذكريات، أو من خلال تصرفاتها وأفعالها، أو عن طريق شخصية أخرى في الرواية تتحدث عن شخصية ما.

ويقسّم النقاد الشخصيات من حيث الثبات والتطوّر إلى نوعين[10]، هما:

أولاً: الشخصية المسطحة (Flat character) أو الشخصية الثابتة،، وهي: شخصية لا تتأثر، أو تؤثر بالأحداث طوال الرواية، ويسهل فهمها منذ بداية الرواية، مثل شخصيات المغامرات البوليسية. فالشخصيات المسطحة، هي شخصيات ذات بعد واحد غالباً، وهي مثل فقاقيع الماء تظهر وتختفي. والتسطيح ليس إدانة لها، لكنه وصف لطبيعتها، "وتمثل الشخصية

المسطحة فكرة، أو صفة لا تفارقها، ولا تستطيع الأحداث تغييرها، فكأنها حجارة شطرنج لا تتأثر باللعب. وهي موضوع للتفكّه، لأنها تصور عادات أو إشارات تقترب من الآلية "[11]. ويلقي صاحب كتاب (نظرية الأدب) -وزميله- مزيداً من الضوء على الشخصية المسطحة ، ويرى أنها شخصية سكونية. يقول: "ويقدم التشخيص المسطح (Flat) الذي يتراكب عامة مع (التشخيص السكوني) سجية منفردة ، ترى على أنها السجية السائدة أو الأكثر وضوحاً من الناحية الاجتماعية"[12].

ثانياً: الشخصية الدائرية (round character)، أو الشخصية النامية (Dynamic character)، وهي التي تؤثر وتتأثر بأحداث الرواية، ونكتشفها تدريجياً كلما تقدمنا في القراءة، وأهم ما يميزها: قدرتها الدائمة على مفاجأتنا –بطريقة مقنعة – بعمل جديد، أو صفة جديدة لا نعرفها فيها، وهي شخصيات ممتدة فاعلة، لها شبكة علاقات مع الآخرين، يلقي الراوي الضوء عليها من جميع جوانبها، وتقدم على دفعات تدريجية، ورويداً رويداً نتعرّف خصائصها وسماتها الخَلقية والخُلقية. ويقدم رينية ويليك مزيداً من التوضيح على طبيعة هذه الشخصية بقوله: " أما التشخيص المستدير شأنه شأن (الدينامي) فيطلب مدى وإلحاحاً ، ومن الواضح أنه يصلح للاستعمال من أجل شخصيات تتركز فيها وجهة نظر أو اهتمام معين)[13].

وثمة بعض الدارسين مَن يصنف الشخصية في الرواية حسب دورها في مجريات الأحداث إلى أصناف ثلاثة[14]، هي:

أولاً: الشخصية الجاذبة، وهي شخصية محورية تستأثر باهتمام كل الشخصيات، وتلحظ هذه الشخصية بشكل واضح في الرواية الفلسطينية.

ثانياً: الشخصية المنفّرة، وهي شخصية ذات صفات أخلاقية وسلوكية ممقوتة في عرف المجتمع. غير أن وجود مثل هذه الشخصية مهم في الرواية، لأنه يساعد على تحريك الصراع وتثوير الأحداث.

ثالثاً: الشخصية التابعة، وهي الشخصية التي تدور في فلك شخصية جاذبة، أو شخصية منفّرة، وهذه الشخصية تفتقد إلى استقلالها الذاتي.

وهناك بعض الكتّاب مَنْ لجأ إلى الربط بين الاسم والمسمى في الشخصية، ورأى أن ثمة علاقة ملحوظة بين اسم الشخصية وخصائصها ودلالاتها، وأفعالها، وأنه لكل شخصية نصيب من اسمها، وأن تسمية الشخصية إنما هو شكل من أشكال رسم الشخصية وتشخيصها وإحيائها، ويرى أن تسمية الشخصية " أبسط أنواع التشخيص. وكل تسمية نوع من أنواع البعث والإحياء

وخلق الفرد"[15]، ويرى رينيه ويليك أن القضية الأهم من ذلك في تسمية الشخصية هي الاستفادة من الإيحاءات الصوتية للكلمات، فنراه يقول: "غير أن العملية الأمهر هي الاستفادة من الكلمات الصوتية ذات الإيحاء"[16]، فالأسماء تحمل معاني ذات مغزى، وهي شكل من أشكال الاقتصاد والتشخيص.

غير أن بعض الأعمال القصصية لا تلتفت إلى هذه القضية ولا يتنبّه الكاتب على الرابط بين الاسم والمسمى. وهناك بعض الكتاب يغفلون هذه العلاقة بين الاسم والمسمى، إيماناً منهم بأنه ليس بالضرورة إطلاقاً أن يتطابق اسم الشخصية مع دلالته، فكم من شخص يحمل اسمه معاني الشجاعة وهو غاية في الجبن، أو يحمل اسمه دلالات الخير والعطاء، وهو في غاية الشر والبخل.

دور الرواية الفلسطينية

تحاول الرواية الفلسطينية أن تصور واقعها وأن تصوغه في شكلها الفني، إذ أصبح الهم الوطني يستغرق معظم صفحاتها، كما حاولت الرواية التعبير عن تجربة الاقتلاع والنفي منذ وقت مبكر جداً " إلا أن مجمل الإنتاج الأدبي الذي أفرزته تلك المرحلة ظل موسوماً بالحدة الانفعالية التي تجللها حالة من الحزن، ويطفو عليه إيقاع الحنين الرومانسي إلى المكان المفقود، والإصرار المباشر الشعاري، على العودة إلى الأرض"[17]. ولعل رواية (سنوات العذاب) خير ما يمثل هذه الرؤية – في الروايات محور الدراسة- إذْ يعلو صوت الكاتب على صوت الشخصية المحورية في الرواية، حتى تضحي هذه الشخصية بوقاً يبثّ من خلاله الكاتب كل آرائه وتصوراته للواقع الفلسطيني، ويتجلى فيها الحس الرومانسي الحالم، ولاسيما في الحنين إلى ماضي الشخصية في يافا.

من هنا راحت الرواية الفلسطينية تصوّر واقعها المعيش، وتتمثله وتنقله بكل حرارة وصدق، وتتفاعل معه وتصوره تصويراً فنياً وهّاجاً، بكل جراحاته الراعفة وآماله وإحباطاته. فكانت بحق (صورة حياة)، صوّرت حياة شخصياتها وجلّت وجهات نظرهم تجاه واقعهم المعيش، فكانت مرآة أعادت خلق الواقع الفلسطيني بكل آلامه وآماله. وكما يقول كولن ولسن فإن: "الرواية محاولة لخلق مرآة من المرايا يستطيع الروائي من خلالها رؤية وجهه، وهي أساساً محاولة لخلف الذات"[18].

ومع بداية الستينات أخذت الرواية الفلسطينية تنحو منحى واقعياً واضحاً. محاولةً تحسس الواقع، بكل مرارته وأساه، وتصويره والتعبير عنه، وطرح قضاياه بجرأة وشجاعة. فإذا كنا قد لحظنا أن رواية (سنوات العذاب) قد اتشحت بوشاح الحنين الرومانسي إلى المكان المفقود، فإننا نلحظ أن روايتي (حفنة تراب و البكاء على صدر الحبيب) لم تنح مثل هذا المنحى الرومانسي.

غير أن ذلك لم يمنع كتّاب هذه الروايات – في كثير من الأحيان – من اللجوء إلى الخطابية في بعض المواضع، وبثّ المعتقدات الأيديولوجية.

فالرواية العربية عامة، والفلسطينية خاصة تختزن في خلفيتها إيديولوجيا معينة، وتحاول أن تمد القارئ بكم هائل من المعلومات المحشوة داخل النص الروائي، كما تحاول أن ترفع من درجة الوعي واليقظة عنده، كما نلحظ على سبيل المثال في رواية (سنوات العذاب). فالهدف من الرواية "هو تقديم وعي متسع الزاوية، وأن الوعي اليومي ضيّق ومحدود. وأن الرواية واحدة من أكبر التعويضات الممتعة التي استطاع الإنسان أن يبتكرها لحد الآن"[19].

أضفْ إلى ذلك أن الرواية العربية بشكل عام، والفلسطينية بشكل خاص هي رواية مسيّسة[20]، تحاكي الواقع وتطرح أدق تفاصيله السياسية والاجتماعية والاقتصادية. فها هو ذا ناصر الدين النشاشيبي في روايته (حفنة تراب) يصوّر ذلك الصراع المميت على الأرض بين العرب واليهود. حتى ليعود بالقارئ إلى تلك اللحظات الماضية الأليمة.. لحظات احتلال الأرض وسحبها من تحت أهلها، حتى لكأن القارئ يصبح يسمع أنّات أهلها وآمالهم تتكسر شظايا في رحاب التيه. أما رشاد أبو شاور في روايته (البكاء على صدر الحبيب)، فإنه يصوّر واقع المقاومة الفلسطينية بعد أحداث أيلول سنة 1970، وخروج المقاومة من الأردن، فيكشف سلسلة من سلبيات قادة المقاومة، بكل جرأة وصراحة. بل إنه قد حمّل هذه القيادة مسؤولية كل ما آلت إليه المقاومة من تردٍ وتمزق.

وهكذا فقد حاولت الرواية الفلسطينية أن تكشف مكامن الخطر الذي يتعرض لها المشروع السياسي الوطني الفلسطيني، عبر رسمها للإنسان وللحياة اليومية التي يعيشها الإنسان ضمن مناخات سياسية مختلفة ومتناقضة، والربط بينها بعلاقة جدلية تبحث عن معنى الوجود الجغرافي الذي يتواجد عليه الإنسان الفلسطيني الفاقد لأرضه ووطنه. إلاّ أننا نلحظ أن الشخصية الفلسطينية في أدب المقاومة كثيراً ما تكون ضمن إطار التفاؤل، ولا بدّ أن يعطى هذا الإطار معناه، ولا يتحقق هذا المعنى في الرواية إلاّ بواسطة العمل. ومن هنا نرى أن الحدث شديد اللصوق بالشخصية، فالشخصية هي صانعة الحدث، والحدث في الرواية الفلسطينية يتخذ مسارات عدة، أهمها: الوعي بضرورة التشبث بالأرض والوطن، وعدم الركون للأمر الواقع، ومحاولة الكشف عن جوهر الواقع الفلسطيني، وسبل الخلاص من هذا الواقع المؤلم.

لذا فقد حاولت الرواية الفلسطينية استلهام كل هذه المعاني والارتقاء بالوجود الفلسطيني إلى آفاق الحرية والتحرير، وكما يقول كولن ولسن :" إن مهمة الروائي مهمة روحية، وهي أن يحرر نفسه من هذه المحدودية ويحقق رؤية متسعة الزاوية، ونقل ذلك إلى القارئ"[21].

الواقعية.. وشخصية المرأة

المتأمل في الروايات – محور البحث – يلحظ بوضوح أن الواقعية سمة تظل تظهر في طبيعة الشخصية في الرواية الفلسطينية. فالشخصية ذات طبيعة واقعية حية – غالباً -، تعيش واقعها وتتفاعل معه، بكل صوره وتجلياته: المفرحة والمترحة. كما يلحظ أن حياه الشخصية فيها، وحركتها تظل مرتبطة بحركة الواقع الفلسطيني، وخاضعة لكل تغيراته، وبالتالي فإن لحركة الحدث الفلسطيني أهمية قصوى على حياه الشخصية وفعلها، أو ردّ فعلها تجاه الحدث السياسي أو الوطني. من هنا فإن الشخصية في الرواية الفلسطينية تظل تقوم بدور له خصوصيته وأهميته وحساسيته، إذ إن أغلب شخصيات الرواية الفلسطينية هم أناس يمثلون قضية وطنية ويعانون واقعاً سياسياً ومعيشياً مريراً. وكما يقول فلوبير فان العمل الروائي "مجرد عرض مباشر للواقع كالصورة"[22].

وتظهر الطبيعة الواقعية للشخصية المحورية في الرواية الفلسطينية أكثر من سواها من السمات الأخرى التي يمكن أن تظهر في طبائع الشخصيات بشكل عام. كما نلحظ في روايتي: (سنوات العذاب)، و (حفنة تراب) مثلاً. إذ يلحظ أن الشخصيات المحورية في هاتين الروايتين – منى وهناء الغزاوي - هي شخصيات ارتبطت بالواقع واكتوت بسياطه وجراحه الراعفة. فهي شخصيات واقعية في حياتها، كما في علاقاتهم. ومن هنا يمكن أن نحس بوجودها، وأن نحس بالألفة بيننا وبينها، إذا حاولنا أن نتفهّم معاناتها. سواء أنجح الكاتب في رسم ملامح هذه الشخصيات وإكسابها الواقعية التي تتناسب مع هذا الواقع، أم أخفق في ذلك – كما سنلاحظ ذلك بوضوح عند رسم بعض الشخصيات، لا سيما شخصية منى -. فالرواية كما يقول رينيه ويليك إنما هي: " صورة عن الحياة الواقعية "[23] التي يعيشها الناس.

ومما يلحظ أيضاً أن هذه الشخصيات إنما هي ضحايا بشكل أو بآخر للصراع الفلسطيني الصهيوني، كما نلحظ بشكل مباشر في رواية (سنوات العذاب)، وتلك المأساة والتشرد والقهر الذي تعانيه (منى)، التي فقدت أرضها ووطنها، وباتت نهباً للضياع والتشرد، وفقدت والدها وجدها، ناهيك عن عذابها النفسي والجسدي. أو في رواية (حفنة تراب) حيث تعاني (هناء الغزاوي) من آثار الصراع ومحاولات سلب الأرض، وفي سبيل ذلك تفقد ابنها (ثابت) وحفيدتها (خديجة)، وليت الأمر انتهى عند هذا الحد، بل لقد سُلبت أرضها، وضمت إلى مستعمرة (هاديف) وأودعت السجن الأبدي. شأنها في ذلك شأن الفلسطيني الأسير في وطنه المعذب على أرضه.

آية ذلك كله: أن شخصية المرأة الفلسطينية هي شخصية واقعية حية، تعيش واقعها وتتفاعل معه بحرارة. لذا تظل هذه الشخصية لها خصوصياتها وحساسيتها بفعل ذلك الهم الوطني الضاغط على صدرها أبداً، وبذلك فهي شخصية مأزومة باستمرار، وتعاني صراعات نفسية متعددة المنابع.

شخصية المرأة: بين الواقعية.. وشطحات الكاتب الرومانسية

والمتأمل في الروايات الثلاثة يلحظ بوضوح أن القضية الفلسطينية، وما تفجره من صراعات هي الرابط بين شخصيات هذه الروايات، وهو ما يميز هذه الشخصيات عن سواها. ولعل هذا الهم الوطني والمأساة التي يعيشها الشعب الفلسطيني قد أضفى على بعض كتّاب هذه الروايات، حتى في أعلى درجات الواقعية شيئاً من العاطفة والانفعال الحاد والخيال الرومانسي، كما نلحظ في رواية (سنوات العذاب). إذْ إن الكاتب اعتمد أصلاً في روايته على قصة واقعية حصلت مع إحدى قريباته: بطلة الرواية "وفي الحقيقة فإن أحداث الرواية التي حصلت لبطلته وأمها و أسرتها بالفعل ضاعت من خلال مغالاة عواطف الكاتب، ومن خلال فرضه لاتجاهاته السياسة والوطنية على هذه الشخصيات، حيث فرض عليها أن تنطق بكل ما يعتمل في نفسه ويدور في خلده من شعارات وهتافات، فأضاع بذلك قضية هذه الأسرة. وما عانت وكابدت من عنت وظلم واضطهاد من العدو الإسرائيلي"[24]. إضافة إلى المضي بعيداً مع الشخصية في شطحات رومانسية ومواقف لا تحتمل مثل هذه الشطحات الرومانسية[25].

وفي رواية (حفنة تراب) نرى الشخصية الفلسطينية تتجه اتجاهاً وطنياً مغالياً، حتى أنه أحياناً يظهر عليها الانفعال والتسطّح والخطابية المباشرة، وذلك من خلال بعض الشخصيات مثل شخصية هناء الغزاوي وغيرها. – كما سنبين ذلك عند تناول هذه الشخصية وسواها – وقد تنبه أحد الدارسين لهذه الرواية على هذه الملاحظة، فقال معلقاً على الرواية: إن الرواية " تسرد الأحداث بتقريرية وخطابية واضحة، كما أنها تحفل بذكر القوانين والإجراءات البريطانية التي ساعدت اليهود، مما وصمها بطابع التسجيلية والمباشرة. لقد عبرت الرواية، إلى حد ما، عن زمن الصراع في فترة الثلاثينات والأربعينات، لكن تعبيرها كان فجاً ومباشراً، ولم يكن مؤثراً في كثير من الأحيان، ولم يضع المؤلف الخاص في قالب الاستفادة منه، بل عرضه كما هو دون تحليله أو ربطه بالحاضر، فجاءت روايته مجرد بكائية على الزمن الضائع في الوقت الضائع"[26].

ولعل إغراق الكاتب بالشعور المأساوي لضياع الأرض والوطن، وعدم قدرته استيعاب الأمر، جعله يتخفف أحياناً من الجانب الفني، غير قاصدٍ ذلك. فأنْ تفقد وطناً، وشعب يُحكم عليه بالإعدام لأمر ليس من السهولة تصديقه أو التسليم به. ولذلك فإن الشخصية هنا (هناء الغزاوي) تقف مندهشة ومفجوعة أمام هذا الزمن الفلسطيني، أمام هذا الضياع الفلسطيني، ومن هنا نراها

داخل سجنها تعاني حالة تشبه حالة الجنون، إنها لا تصدق أن تُسلب أرضها، ويقتل ولدها ويحكم عليها بالسجن المؤبد.

ومن هنا نرى هناء الغزاوي داخل سجنها غارقة في الأسى والفجيعة، مما صرفها عن الاختلاء إلى صوت العقل والمنطق، وهذا صرفها بدوره عن إثارة السؤال والبحث حول ما حدث، وما أسبابه؟ ومن المسؤول عنه ؟ وكيفية التغلب عليه ؟.

غير أن المتأمل في رواية: (البكاء على صدر الحبيب) لا يلحظ مثل هذه الشطحات الرومانسية للكاتب، بل يلحظ أن الطابع الواقعي يظل هو المسيطر على رشاد أبو شاور، إذ يلحظ تراجع الحس الرومانسي الحالم، والخطابية المباشرة والانفعال الحاد عنده باتجاه الواقعية الموضوعية، وهذا ينعكس إيجاباً على رسم الشخصية وحياتها عند الكاتب بشكل عام، إذْ قد تبدو الشخصيات في الرواية: مصورةً مشخصةً، لا مقررةً خياليةً، ويصبح اتصالها بالبيئة أكثر لصوقاً، وحركتها في الحياة أكثر واقعية وموضوعية.

لكن ثمة نقطة جديرة بالملاحظة، هنا، فشخصية المرأة في روايتي: (سنوات العذاب وحفنة تراب)، كانت هي الشخصية المحورية السائدة في هاتين الروايتين. أما في رواية: (البكاء على صدر الحبيب)، فكانت المرأة شخصية ثانوية تابعة. في حين اضطلعت شخصية الرجل بالبطولة المحورية والسيادة.

فهل يا ترى أن طول تعامل الكاتب مع المرأة بطبيعتها الانفعالية الحساسة الحادة –غالباً – وبطبيعة دورها المحوري في روايتي: (سنوات العذاب وحفنة تراب)، كان له دور في ظهور مثل هذه الشطحات الرومانسية عند الكاتب، ظناً منه أنها تتناسب مع طبيعة المرأة ؟؟ سواءً أظهر ذلك بشكل واعٍ، أم غير واعٍ عند رسم الشخصية. في حين أن البطولة والمحورية كانت للرجل في رواية: (البكاء على صدر الحبيب)، والرجل – غالباً – ذو طبيعة واقعية أكثر من المرأة، مما أسهم في غلبة السمة الواقعية على رسم الشخصية، وتخففها من الحس الرومانسي الحالم والانفعال الحاد ؟؟

شخصية المرأة: دورها وأنواعها

المتأمل في الروايات - محور الدراسة – يلحظ أن شخصية المرأة قد توزّعت على صفحة هذه الروايات ما بين: الشخصية المحورية النامية، كما في روايتي: (سنوات العذاب وحفنة تراب)، وبين الشخصية الثانوية التابعة، كما في روايتي: (البكاء على صدر الحبيب).

وما بين الشخصية الجاذبة التي تستأثر باهتمام الجميع، والشخصية المنفّرة المملولة. ففي رواية (سنوات العذاب) كانت (منى) تمثل الشخصية المحورية الوحيدة في الرواية، حمّلها الكاتب كل هموم القضية وجراح المأساة، بل وحمّلها كل معتقداته الأيديولوجية حتى أضحت شخصية منتفخة جداً، تعبر عن آراء الكاتب نفسه ورغبته الجامحة في تحرير وطنه، أكثر مما تعبر عن آرائها هي نفسها ورغبتها في التحرر من نير الاحتلال. لعل الكاتب – أي كاتب – لا يستطيع أن يتجاهل وجهة نظره، وينفك منها انفكاكاً تاماً. فالكتّاب الجيدين- على حد تعبير كولن ولسن[27] يقومون بتجسيد وجهة نظرهم بالحياة في أعمالهم والإفصاح عن رغبتهم العارمة للحرية. غير أن ذلك لا يعني أن تصبح الشخصية القصصية بوقاً لصوت الكاتب يبثّ من خلاله آراءه بشكل مباشر.

والمتأمل في شخصيته (منى) يلحظ أنها شخصية جاذبة استأثرت باهتمام الجميع، ودار في فلكها عدد كبير من الشخصيات التابعة أو الثانوية ؛ مثل أمها وجدها وصديقاتها: هناء وسلوى وغيرهما، والممرضات في المستشفى، والجند في أطراف البلدة، والمعلمات في المدرسة. وثمة ظهور للشخصيات المنفّرة، تمثل في الشخصيات اليهودية، سواء في شخصيات الجند أم في شخصية الطبيب أم في غير ذلك.

وفي رواية (حفنة تراب) كانت شخصية (هناء الغزاوي) هي الشخصية المحورية التي ظلت تتحرك في الرواية منذ اللحظة الأولى إلى النهاية، وتقوم بدور المحرّض الثوري، والمعبئ الوطني لابنها (ثابت) - الشخصية الثانية في الرواية - ولكافة سكان القرية كي يتمسكوا بأرضهم، ويرفضوا إغراءات رأس المال الصهيوني. وهي مثل (منى) تمثل الشخصية المحورية الجاذبة، وقد تحلّق حولها عدد من الشخصيات الأساسية والنامية، مثل شخصية ابنها (ثابت) الذي يعد امتداداً لدور أمه الوطني، وعمران الضابط المصري الذي يمثل بعداً قومياً في القضية الفلسطينية، وحفيدها (ثابت) وأخته خديجة، وهما امتداد لشخصية (هناء الغزاوي) أيضاً.

أما في رواية (البكاء على صدر الحبيب)، فقد ظهرت شخصية المرأة بصورة الشخصية الثانوية التابعة، مثل شخصيات: (فجر، وهناء، ونهاد)، وظلت هذه الشخصيات تدور في فلك البطلين الرئيسين في الرواية (زياد وغالي).

رصد شخصية المرأة: تحليلها.. ودلالاتها.. وطرق رسمها

أولاً: المرأة داخل إطار الأسرة

سنتناول في هذا الموضع – من الدراسة - شخصية المرأة في الروايات الثلاثة بالرصد والتحليل والتمحيص، فنرصد توزّع هذه الشخصية رصداً دقيقاً، ونتناول أولاً شخصية المرأة: (الأم، البنت) داخل إطار الأسرة، ثم نعرّج على شخصية المرأة خارج هذا الإطار الأسري.

والمتأمل في الرواية الفلسطينية، بشكل عام، يلحظ وجود نوعين من شخصية المرأة، الأول ما يمكن أن يسمى بالشخصية الثورية، والآخر سنطلق عليه تسمية الشخصية التقليدية/الهروبية. وإنْ كان ظهور مثل هذا النوع الأخير من الشخصية في الروايات - محور الدراسة - أقل بكثير من النوع الأول. والملاحظ أن الشخصية التقليدية، في هذه الروايات، غالباً ما كانت شخصية ثانوية، في حين أن الشخصية الثورية كانت في هذه الروايات شخصية نامية متطوّرة، وهي الشخصية المحورية في الروايات في أغلب الأحيان، كما سنلحظ أثناء الدراسة، في قادم الصفحات.

اهتمت الرواية الفلسطينية بتصوير العلاقة بين الرجل والمرأة، وإبراز المكانة التي تحتلها المرأة في عالم الرجل، ولا سيما الرجل الثوري المناضل، في حين أنها لم تُعنَ كثيراً بتصوير العلاقة بين المرأة والرجل التقليدي السلبي، بوصفه يشكل عائقاً أمام تحرير المرأة، وتطورها سياسياً واجتماعياً وعقلياً، ومن هنا نلحظ أن شخصية المرأة في بعض الروايات الفلسطينية - مثل رواية(رجال في الشمس) لغسان كنفاني على سبيل المثال - كان باهتاً تماماً. ولم يكن للمرأة في هذه الرواية دور فاعل، أو حضور واضح. إذ إن الشخصيات المحورية في هذه الرواية كانت كلها شخصيات هروبية تقليدية، أو شخصيات غير ثورية أو نضالية – وهي شخصيات مثّلها الرجل (أبو قيس، أسعد، مروان، أبو الخيزران) - وأنها كلها شخصيات انشغلت بالهم الذاتي عن الهم الوطني، وهي شخصيات سلبية تستسلم لمصيرها الفاجع دون أن تفكر في الثورة عليه أو تغييره. ومن هنا نرى أبا قيس -مثلاً- بعد وصوله البصرة يسترجع ماضيه في وطنه :

"في السنوات العشر الماضية لم تفعل شيئا سوى أن تنتظر.. لقد احتجت إلى عشر سنوات كبيرة جائعة كي تصدق أنك فقدت شجراتك وبيتك وشبابك وقريتك كلها.. في هذه السنوات الطويلة شق الناس طرقهم وأنت مقعٍ ككلب عجوز في بيت حقير.. ماذا تراك كنت

تنتظر ؟ أن تثقب الثروة سقف بيتك؟ إنه ليس بيتك.... رجل كريم قال لك: اسكن هنا ! هذا كل شيء وبعد عام قال لك أعطني نصف الغرفة فرفعت أكياساً مرقعة من الخيش بينك وبين الجيران الجدد... وبقيت مقعياً حتى جاءك سعد وأخذ يهزك مثلما يهز الحليب ليصير زبدا "[28]. وهكذا فأبو قيس يعاني ظروفاً معيشية قاتلة، لا يمكن استمرار الحياة معها. ولكنه لم يحاول أن يبحث عن جذر المشكلة ويواجهها، ولكنه واجهها بالهروب منها، وراح يبحث عن المال في صحراء الكويت القاتلة، حتى مات هو ورفيقاه – خنقا داخل خزان الشاحنة دون أن يفكر أن يدق، هو أو مَنْ معه، جدران الخزان **"لماذا لم تدقوا جدران الخزان ؟ لماذا لم تقرعوا جدران الخزان ؟ لماذا ؟ لماذا ؟"**[29].

وفي حين نلحظ الحضور البارز لشخصية المرأة في رواية (حفنة تراب). ويلحظ أن الشخصية المحورية في هذه الرواية كانت شخصية ثورية، على النقيض من رواية (رجال في الشمس) السابقة. أما في رواية (البكاء على صدر الحبيب)، ورواية (سنوات العذاب) يلحظ، أيضاً، أن الشخصيات في هاتين الروايتين هم شخصيات ثوريون، ومن هنا نلحظ حضور المرأة البارز في هذه الروايات.

شخصية المرأة / الأم

ولعل شخصية المرأة تجسدت في الغالب في صورة الأم المثال، إذْ إنّ الأم، في المجتمع العربي خاصة، تحاط بهالة أشبه ما تكون بالتقديس والإجلال والاحترام. ويظل الواقع الفلسطيني الفاجع يلقي بظلاله على شخصية الأم، وكثيراً ما كان الأب يستشهد أو يموت، ويترك وراءه أرامل تحمل همَّ الأرض المهددة بالافتراس، والأبناء الأيتام الذين بحاجة إلى من يقف إلى جانبهم، في ظل ظروف الاحتلال الأليمة.

وقد جسّدت الرواية الفلسطينية ذلك كله. فالرواية كما يرى رينيه ويليك: "صورة عن الحياة الواقعية وعن عادات الناس وعن العصر الذي كتبت فيه"[30]. ومن هنا نلحظ أن حضور شخصية الأم كان واضحاً في الرواية الفلسطينية – محور الدراسة – وبالمقابل انحسر حضور الرجل /الأب في الأسرة "وربما يعود السبب في ذلك إلى أن المرأة / الأم تشكل قيمة اجتماعية ونفسية وأخلاقية في عقلية الإنسان العربي، وهي تنطوي على قدرة غير محدودة في العطاء والتفاني، إلى جانب كونها رمزاً للوطن والأرض والخصب، ولها اليد الطولى في تدبير أمور المنزل وتربية الأطفال وتنشئتهم وتوجيههم وتعليمهم وتزويجهم"[31].

والمتأمل في الروايات، محور الدراسة، يلحظ وجود نوعين لشخصية المرأة / الأم، الأول: الأم الثورية المناضلة، كما نلحظ في رواية حفنة تراب، من خلال شخصية هناء الغزاوي (أم ثابت)،

أما النوع الآخر فهو: المرأة / الأم التقليدية المستسلمة لظروفها وواقعها، كما نلحظ في رواية سنوات العذاب، من خلال شخصية فاطمة (أم منى). وفي رواية البكاء على صدر الحبيب من خلال شخصيتي (أم غالي و أم زياد).

ففي رواية حفنة تراب تطالعنا شخصية هناء الغزاوي (الأرملة)، الأم الفلسطينية المكافحة المناضلة بقوتها وتشبثها بأرضها وأولادها وأحفادها، وهي شخصية ثورية تشكل امتداداً طبيعياً للرجل الثوري - كما رأينا – في تصديها للعدو وممارستها الفعل النضالي بشكل من الأشكال.

وملخص قصة هناء الغزاوي: أنها امرأة فلسطينية فقدت زوجها، في فترة طَمعَ اليهود بأرضه، فتمسكت الأم بهذه الأرض، وعندما كبر ابنها الوحيد ثابت أعاد اليهود محاولاتهم للاستيلاء على أرضه بالترغيب والترهيب، وتقف الأم مآزراً ومسانداً لابنها، وفي اللحظة التي يدرك فيها اليهود أن (ثابتاً) لن يتخلى عن أرضه يقتلونه، فتدفنه أمه في أرضه، وتنشغل بالمحافظة على الأرض وتربية طفليه: (حامد وخديجة)، حتى إذا ما كبر الطفلان، وراحت جدتهما تحدثهما عن بطولات والدهما وتضحيته ومقاومته لأطماع اليهود بالاستيلاء على أرضه وضمها إلى المستعمرة القريبة(هاديف) أصرّا على جدتهما الذهاب إلى هذه المستعمرة والتعرّف عليها، وهناك تكون الفاجعة، حيث تقتل خديجة، وتُتهم الجدة (هناء) بقتل إحدى الفتيات الصهيونيات ثأراً لابنها، فيحكم عليها بالسجن المؤبد، وأثناء ذلك تصاب بعارض الجنون، ويلفعها الحزن والأسى.

وقد جسّد الكاتب من خلال هذه الشخصية نموذج المرأة /الأم الفلسطينية المناضلة الثورية في أزمتها الواقعية والنفسية، في تحديها لظروف الواقع الفاجعة، كاشفاً من خلال ذلك معاناة الأم الفلسطينية في الوطن المحتل، الأم المفجوعة غالباً بأبنائها الذين تحصدهم رشاشات الغدر الصهيوني الحاقد، وتلاحقها للاستيلاء على أرضها والاعتداء على شرفها وكرامتها وحريتها، والزجّ بها في سجون الظلام، وتدمير فكرها ووعيها. كما يكشف من جانب آخر، من خلال هذه الشخصية، عن وحشية العدو ودمويته وتزييفه للحقائق، وتواطؤ الدول الغربية معه (بريطانيا)، كما يكشف أيضاً عن الصدمة العنيفة التي انتابت الشخصية الفلسطينية بعد النكبة، حتى كادت هذه الشخصية تصاب بالجنون لهول المأساة، وتكشف أيضا عن الموقف العربي – في تلك الفترة – للمأساة، إذْ كان هذا الموقف (الرسمي) ملفعاً بالضباب وانعدام الرؤية (من خلال شخصية عمران).

إن شخصية هناء كانت شخصية محورية في هذه الرواية، لعبت دوراً خطيراً في حركة الأحداث، وأثرت في كل الشخصيات من حولها، سواء أكان هذا الأثر سلبياً، من خلال إدراك اليهود والإنجليز لخطورة دورها، لا سيما بعد مقتل ولدها – مما جعلهم يتآمرون عليها حتى

أودعوها السجن المؤبد. أم كان إيجابياً، من خلال تأثيرها في الضابط المصري (عمران) الذي طلب إعفاءه من الخدمة العسكرية، وتطوّع مع المجاهدين لتحرير البلاد.

وقد قدم الكاتب هذه الشخصية لأول مرة عن طريق الحوار مع الضابط عمران في السجن، حيث اكتشف الضابط خصوصية هذه السجينة: بأنها سجينة من أجل قضية وطنية، وليس بسبب جريمة أخلاقية " – **أنا هنا لأن بلدي لم يعد هنا.... إن جريمتي تمشي مع جريمة غيري عندما حاول أن يغتصب مني أرضي، قتلته... أجل قتلته يا حضرة الضابط... بعد أن قتل هو أيضاً ولدي الوحيد الذي رفض أن يبيع له الأرض.... إنّ ضحيتي هو مغتصب وطني.... هو قاتلي**"[32].

وقد لجأ الكاتب أيضاً إلى التقارير المباشرة في تقديم هذه الشخصية، كما في التقرير التالي: "**فقد كانت هناء تعيش مع أسرتها الصغيرة في تلك القرية، وتعمل في زراعة الأرض بالبطيخ... وكانت عائلتها مكونة من زوجها ومن ولدها الوحيد (ثابت)، وكان زوجها يعمل مفتشاً على عمال الخط الحديدي.... إلى أن وقع له حادث.... وتوفي تاركاً وراءه قطعة أرض لولده الوحيد (ثابت) وعاشت هناء مع ولدها ثابت**"[33].

وقد حرص الكاتب على تصوير نفسية هذه الشخصية من خلال الحوار، تقول هناء مخاطبة الضابط: "**وماذا يمنعك أن تتمّ المقابلة هنا ؟ هل تكره جو الزنزانة ؟ لقد مضى عليّ هنا سبع سنوات طوال، ولم أعدّ أطيق فراق هذه الجدران السوداء، لقد أصبحت أنا جزءاً منها، وأصبحت الجدران بعض جسدي** " [34].

ولقد لجأ الكاتب إلى بعض أساليب السرد كالحوار لاسترجاع ماضي هذه الشخصية مع زوجها، ومحاولات العدو للاستيلاء على أرضه. فها هي ذي تخاطب ابنها ثابتاً بعد أن التقى الشباب اليهود والفتاة اليهودية، وقبل أن يفحصه الطبيب اليهودي: " – **ثابت... أنا لا أريد أن ينجح اليهود معك فيما فشلوا مع أبيك منذ عشرين سنة.... أنت تعلم أن أرضك هي الأرض المجاورة لأرض المستعمرة وهؤلاء الناس يطمعون في أرضك.... وهذا ما حاولوه معنا قبل ولادتك.... وجاءوا لأبيك يحاولون إغراءه ببيع الأرض لهم، ولكنه رفض عرضهم وطردهم**"[35].

وتبدو هذه المرأة مدركة لكل أطماع اليهود ومخططاتهم و أساليبهم في الاستيلاء على الأرض ونصب المكائد والاستغلال والدموية[36] حتى أنها تميز بين اليهودية والصهيونية[37].

وهنا نتساءل من أين لهذه المرأة البسيطة أن تحيط بكل هذا العلم، والوعي الكامل بمخططات العدو، في فترة، مبكرة من الصراع العربي الصهيوني ؟ لعل ذلك يكشف أن الكاتب قد استغل هذه الشخصية وحمّلها أفكاره ومعتقداته في التضحية والفداء، ورؤيته لطبيعة الصراع على الأرض، في تلك الفترة، وكل ذلك من شأنه أن يحدّ من حرية الشخصية، وواقعيتها.

وعلى الرغم من ذلك فإن شخصية هناء تظل غنية بالدلالة والإيحاء، وقد حاول الكاتب تقديمها مصورة لا مقررة، على دفعات عديدة، كاشفاً عن أعماقها النفسية، ومعاناتها لواقعها المعيش، فجاءت شخصية موحية بتجربة الأم الفلسطينية في معاناتها لواقعها الأليم، وفي وجه آخر لها جسّدت مأساة الشعب الفلسطيني الأسير في وطنه بعد أن ابتلع الوحش الصهيوني أرضه وافترس أبناءه، فأضحى إنساناً غارقاً بالأسى والحسرة إلى درجة تفوق الإحساس، وتفضي به إلى حالة من الجنون والذهول.

ويظهر في الرواية نفسها جيل آخر جديد لشخصية هناء يتمثل في شخصية ريحانة زوجة ثابت، التي تعد امتداداً لشخصية هناء في النضال من أجل الأرض والتشبث بتراب الوطن. فالكاتب يؤمن باستمرار النضال ضد العدو، مهما كانت الصعوبات. ويؤمن بأن طريق التحرير طويل، طويل، وبحاجة إلى مزيد من التضحية والفداء في سبيل الوطن والأرض.

لقد حرص الكاتب الفلسطيني على تقديم "الأم الفلسطينية في إطار إنساني وفني بديع ومميز، إذ قدمها متفائلة بالمستقبل، محبة للحياة وللأرض. فلم تستسلم للواقع المزري الذي فرضه عليها الاحتلال من جهة، وفقد الزوج من جهة ثانية، بل عملت وكافحت، بكل ما أوتيت من قدرة على مغالبة الشدائد والصمود أمام جبروت الاحتلال " [38].

وإذا كانت الرواية الفلسطينية – محور الدراسة – قد عرضت هذا الوجه للمرأة الفلسطينية، (الأم الثورية المناضلة)، فإنها قد عرضت الوجه الآخر لها، أعني تلك المرأة التقليدية المنسجمة مع واقعها، غالباً، المستسلمة لظروفها وقدرها المفروض من الآخرين عليها، وهذا ينسجم تماما مع فن الرواية (الرواية صورة حياة)، ومع الواقع المعيش، في بعض جوانبه. فليس كل امرأة فلسطينية ثورية مواجهِة. وهذا يخطو بالرواية الفلسطينية باتجاه الواقعية الموضوعية، وينزع بها عن الحسّ الرومانسي الخيالي.

والمتأمل في الروايات – محور الدراسة – يلحظ شخصية الأم التقليدية، ففي سنوات العذاب نلحظ شخصية فاطمة (أم منى)، وفي البكاء على صدر الحبيب نلحظ أم زياد، وأم غالي. وأكثر هذه الأمهات " أرامل ".

والمتأمل في هذا النوع من الشخصية الفلسطينية(شخصية الأم التقليدية) يلحظ أنها كلها جاءت شخصيات ثانوية، تمثل فكرة بعينها لا تحيد عنها، وبالتالي فهي شخصيات ثابتة جامدة جاءت مقررة لا مصورة، لم يكن لها أثر فاعل في توجيه حركة الأحداث في الروايات، أو تأثير ملموس في الشخصيات الأخرى. فهي شخصيات هامشية مسطحة، والتسطح خاصية لها، وليس عيباً فيها[39].

آية ذلك: أن هذه الأم الفلسطينية، عامةً ، كانت تعاني ظروفاً قاسية أليمة أوجدتها ظروف الاحتلال، وبالتالي فهي تمثل شخصية الأم الفلسطينية بكل معاناتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

شخصية المرأة / البنت

وإذا كانت الرواية الفلسطينية قد عرضت صورة الأسرة الفلسطينية في حدود الأب والابن والأم، فإنها قد عرضت أيضاً صورة البنت في حدود هذه الأسرة. وإذا تأملنا الروايات الثلاثة – محور الدراسة – نلحظ أن شخصية البنت – في حدود الأسرة الفلسطينية – لم تظهر إلا في روايتين اثنتين من الروايات الثلاثة، الأولى شخصية منى في سنوات العذاب، وهي تشكل الشخصية المحورية في هذه الرواية، والثانية: شخصية خديجة في حفنة تراب، وهي شخصية ثانوية، وظفها الكاتب لتكون شاهداً على الجريمة الصهيونية ضد الشعب الفلسطيني، وفي الوقت ذاته شاهداً على التضحية والبذل والعطاء الفلسطيني.

أما شخصية منى فهي تلعب دور الشخصية المحورية في رواية سنوات العذاب، وهي تصوّر رحلة العذاب والتشرد الفلسطيني في ظل الاحتلال الصهيوني. وتبدأ قصة منى من يافا، وهي طفلة تبلغ من العمر أربع سنوات، حيث يقوم والدها بترحيلها هي وأمها إلى بئر السبع عند جدها لأمها، ثم تُقصف بئر السبع فيفرون مشياً على الأقدام إلى المحاجر، ويتوالى القصف الإسرائيلي يطارد هذه الشخصية، وأمها وجدها، من المحاجر إلى مضارب البدو إلى عرب أبو خضيرة إلى العوجا حفير إلى بيرين إلى رفح إلى غزة إلى خان يونس. حتى إذا ما استقروا في خان يونس ودخلت الطفلة المدرسة عاد القصفُ يطال البلدة، فتصاب الطفلة وأمها في آن معاً، ثم تُنقل إلى المستشفى، وهناك يدخل الجنود اليهود ويفتحون النار على كل من في المستشفى، فتنجو هذه الفتاة وأمها بأعجوبة، تماما، كما نجت عندما داهم المرض[40] (الحصبة) البلدة، ونجت منها. وفي المستشفى تتعلق بالفدائي الجريح وتحبه دون أن تراه[41]، ولكن من خلال علاقتها بالممرضة لطيفة، التي تحدثها عنه، وتنتهي الرواية برحيل اليهود عن غزة.

والمتأمل في هذه الشخصية يلحظ بوضوح أنها شخصية مفتعلة، وتفتقد إلى الواقعية تماما، وهي ليست أكثر من قالب جاهز أتى به الكاتب وصبَّ فيه كل آرائه ومعتقداته لتصوير رحلة العذاب

الفلسطيني، ومأساة الشخصية الفلسطينية. وشخصية منى شخصية مليئة بالأخطاء الفنية ملفعة بالحس الرومانسي الحالم والخطابية المباشرة، ولذلك فقد جاءت شخصية مقررة لا مصورة، فرضها الكاتب فرضاً على القارئ لكثرة تدخله في حياتها، وتوجيهها المباشر [42] حتى أضحت شخصية متورمة منتفخة إلى حد تكاد فيه أن تنفجر صارخة بصوت الكاتب عالياً: (ألا هاكم هي مأساة فلسطين بكل صورها الفاجعة)، تُقدم منى على أنها الشخصية المحورية في الرواية، وتقوم هي بعملية السرد. والغريب هنا أنها، وهي في سن الرابعة، تسرد ذكريات دقيقة لا يتذكرها الشخص الكبير، وتقوم بتصرفات لا تتحقق لطفل في مثل سنها، مهما كان ذكياً. فهي في سن الرابعة وتقرأ حالة والدها النفسية، وتقدر الحالة التي تعيشها **" وعلى صغر سني قدرت الموقف "** [43]. وما بين هذا السن، ونهاية فترة المراهقة تقوم هذه الشخصية برواية أحداث القضية الفلسطينية بدقة وتفصيل، ابتداءً من نكبة 1948، حتى العدوان الثلاثي على مصر عام 1956. تروي القضية الفلسطينية بكل مآسيها وجراحها وخياناتها، وبعض القضايا الحساسة، مثل قضية السلاح الفاسد [44]، ونقد القيادة الفلسطينية[45]، ووحشية الجندي الصهيوني[46]، والنقد الاجتماعي[47]، والقصف الإسرائيلي، وتثير التساؤلات الكبيرة[48]. وكل ذلك يخالف طبيعة فتاة في هذا السن، فتاة صغيرة، لم تنهِ المرحلة الإعدادية. فمن أين لها بكل هذه الثقافة والاطلاع والوعي بالقضية الفلسطينية ؟؟! إنه باختصار صوت المؤلف. افتعل هذه الشخصية الجاهزة. وصبَّ فيها كل أفكاره ورؤاه ومعتقداته تجاه القضية. فجاءت هذه الشخصية غير واقعية إطلاقاً، تشوبها الأخطاء الفنية، وتغلفها هالة رومانسية[49]، ولغة شفافة تتناسب مع شخصية المؤلف الشعرية نفسها (المؤلف كان شاعراً أيضاً)، وقد انسحب هذا الأسلوب في رسم الشخصية على الشخصيات جميعاً في الرواية، "ونحن هنا لا ننكر على الكاتب أن يلوّن شخصياته ببعض أفكاره واتجاهاته، ولكن ما ننكره عليه هو أن تتحول هذه الشخصيات إلى أبواق دعائية، يعبر من خلالها الكاتب عن آرائه و اتجاهاته، ويوزع هذه الآراء والاتجاهات على الشخصيات، فنحصل بذلك على نماذج مجزوءة وذات وجه، أو جانب واحد، بحيث تكوّن كل هذه الجوانب والوجوه التي تمثلها الشخصيات، شخصية الكاتب نفسه"[50].

وهكذا يلحظ أن هذه الشخصية هي أقل الشخصيات المحورية واقعية، في الروايات الثلاثة، محور الدراسة، سواء في شخصية الرجل أم شخصية المرأة، ولكنها، على أية حال، تظل تجسّد عذاب الشخصية الفلسطينية، وتوحي بمحاولاتها للثورة على واقعها ورفضه، أو على الأقل عدم الاستسلام له، في ظل ظروف الاحتلال الصهيوني لفلسطين.

ثانياً: المرأة خارج إطار الأسرة

وهكذا فقد جسّدت شخصية البنت، في إطار الأسرة الفلسطينية الواحدة، صورة أخرى لشخصية المرأة الفلسطينية – في الروايات محور الدراسة – وكما لعبت المرأة دوراً ظاهراً في إطار الأسرة الفلسطينية، تمثّل في المرأة /الأم، و المرأة /البنت، فإننا نلحظ، أيضاً ظهوراً آخر للمرأة تمثّل في المرأة الفلسطينية بشكل عام، خارج حدود الأسرة، وفي المرأة العربية، وفي المرأة الصهيونية. وسنتناول بعض الشخصيات الممثّلة لكل جنس من هذه الأجناس الثلاثة على التوالي، مبتدئين بالمرأة الفلسطينية.

إن المتأمل في الرواية (سنوات العذاب) يلحظ أنه ثمة شخصية أخرى جاءت امتداداً لشخصية منى، هي شخصية الممرضة (لطيفة)، ولكن هذه الشخصية لم تكن شخصية محورية في الرواية مثل شخصية منى ولو شاء لها الكاتب أن تكون شخصية محورية لكانت صورة أخرى مفتعلة لشخصية منى المحورية.

وقد أسقط الكاتب عليها كل معتقداته في الحماس الوطني والتضحية والفداء، وأعطاها كل ما يتصوره في الفتاة الفلسطينية من إقدام وتضحية وعطاء، وقد اكتسبت طابع المغامرة والتضحية والفداء. تتراءى كل هذه المعاني من خلال علاقتها بالفدائي الجريح، وحبها المجنون له من أول نظرة، وقد فسرنا أسباب ذلك في تناولنا لشخصية منى. وشخصية لطيفة شخصية غير واقعية، وتقوم بتصرفات ومغامرات لا تستطيع فتاة، في مثل وضعها أن تقوم بها، بل إن المغامرة التي تقوم بها لتهريب الفدائي والفرار من أيدي الصهاينة أولى أن تقوم بها فرقة قوات خاصة (صاعقة).

وبذلك فقد ولدت هذه الشخصية ميتة، ولم تتح لها فرصة الحياة الطبيعية، والتفاعل مع الأحداث بواقعية وحرية، وإنما جاءت شخصية مسيرّة، يحركها الكاتب وفق أفكاره ومعتقداته الخاصة تجاه النضال والتضحية، والمقاومة. كل ذلك جعلها شخصية مفروضة فرضا، وبوقاً للكاتب يبث من خلاله آراءه.

وإذا ما نظرنا في مصير هذه الشخصية، فإننا نراه، أيضاً، غير مقنع، إذ تتزوج لطيفة من الفدائي الذي هُرّب من المستشفى بعد رحيل العدو عن غزة. وليس الغرابة في الزواج، بل في عدم منطقية الأحداث التي أدت إلى الزواج. فالفدائي بعد أن هرب من المستشفى تنقطع أخباره نهائيا، ولطيفة يغيب دورها إلى نهاية الرواية [51]، وعندما يرحل العدو عن غزة ويحتفل الناس بهذا اليوم السعيد، تظهر فجأة لطيفة تُزف إلى الفدائي وسط ذاك العرس الفلسطيني الكبير[52].

على أية حال فان هذه النهاية السعيدة تعكس **التفاؤل التاريخي** الذي تعيشه الشخصية الفلسطينية، والأمل العريض المعقود على المقاومة الفلسطينية في التحرير والنصر. وأن النصر لا يتحقق إلاّ بمزيد من التضحية والنضال ضد العدو.

وفي رواية البكاء على صدر الحبيب نلحظ نمطاً آخر لشخصية المرأة الفلسطينية الثورية المتحررة، يتمثل في شخصية هناء. وهناء فتاة فلسطينية تدرس في جامعة بيروت العربية، وتعمل كاتبة وصحفية تنضم إلى المقاومة الفلسطينية، وتتعرّف العديد من المسؤولين والقادة في المقاومة، وتقيم معهم علاقات جنسية، حتى أضحت لا ترفض دعوة من أحد، وأضحت امرأة مومساً، يائسة من الحياة لكثرة ما غرر بها هؤلاء المسؤولون في المقاومة، حتى أوصلوها إلى ما هي فيه من انحطاط. تتعرف على غالي وتحبه، ويحبها، ويعفو عن سقطاتها. وفي أحداث بيروت 1973 تقتل هي وغالي معاً.

وقد صوّر الكاتب هذه الشخصية فتاةً متحررةً من كل العادات والقيم فهي: تدخّن بكثرة وتسكر، وتمنح جسدها لكل من يطلبه من المسؤولين والقادة، حتى أضحت فتاة محطمة يائسة من الحياة، تريد أن تنتحر. وتريح نفسها من كل هذا العذاب الذي تعيشه.

وقد رسم الكاتب أبعاد نفسية هذه الشخصية. تقول هناء مخاطبة صديقتها فجر: **(-أنا انتهيت يا فجر..إنني..أشبه ما أكون بمومس حتى أنني خفت أن أكون مريضة. لقد منحت جسدي للكثيرين أنا لا أصلح أن أكون زوجة، لأيما رجل، مهما كانت قيمته. كنت أريد دائما أن أؤكد نفسي أنني امرأة، وأنني حرة. بربك هل هذا الجسد جسد امرأة، إنني مثل ماعز في أيام القحط، يأتي وأحدهم أحياناً إلى المجلة ومعه زوجته يحاول أن لا تلتقي نظراتي بنظراته، يتحدثون عن الثورة والوطن والوفاء الزوجي، وأعباء الحياة النضالية، ثم بعد أن تخرج الزوجة يتحول إلى ذئب، قرفت"**[53].

لقد قدم الكاتب هذا الجانب من حياة الشخصية، ولم يقدم بقية جوانبها، وبالتالي فهي شخصية ذات وجه واحد، وتمثل فكرة واحدة، منذ بدء حياتها في الرواية إلى موتها، إنها – كما تقدمها الرواية – تبدو ضحية للقادة والمسؤولين في المقاومة، فهم الذين غرروا بها حتى وصلت هذا المستوى من الانحلال الخلقي والدمار النفسي، وكأن الكاتب " أراد الإساءة إلى كل من له علاقة بالمسؤولين في حركة المقاومة، أو يريد أن يلبس كل شخصية لها علاقة بالمقاومة الفلسطينية مأساة حياتية سببها انحراف المقاومة ومسؤوليها عن الخط القويم"[54]. وفي هذا إدانة مريرة لممارسات بعض القادة في حركة المقاومة، فهم مستغلون، متصنعون، ومخادعون،

يُؤدون بالشخصية الثورية النضالية إلى التحطيم والدمار النفسي، حتى يضحي الموت أرحم من الحياة. ولا شك أن شخصية نضالية محطمة ومدمرة لن تكتب لها الحياة، وستسقط من أول مواجهة، كما رأينا في مصير هناء، إذ تموت موتاً عبثياً مجانياً [55].

ولعل الكاتب يرمي إلى أكثر من هدف من خلال هذا المصير الذي واجهته شخصية هناء. فإضافة إلى ما ذكرنا قبل قليل، فإنه يدين ويرفض هذا النمط من الشخصية الفلسطينية النضالية الثورية المتحررة إلى درجة الانحلال، ويرى أن مثل هذه الشخصية لا تستحق الحياة، ولذلك حكم عليها بالموت.

وإذا كانت الرواية الفلسطينية –محور الدراسة – قد أبرزت الشخصية الفلسطينية ودورها في الصراع حول القضية الفلسطينية، فإنها لم تغفل دور الشخصية العربية، كونها، بشكل أو بآخر، تشكل طرفاً في هذا الصراع، وتشكل الامتداد الاستراتيجي للشخصية الفلسطينية. غير أن حضور الشخصية العربية في الرواية الفلسطينية – محور الدراسة – يظل حضوراً محدوداً قياساً إلى حضور الشخصية الفلسطينية، وكأن كاتب الرواية الفلسطينية يريد أن يقول: إن الشخصية الفلسطينية هي التي تحمل العبء الأكبر في عملية النضال والمقاومة، إضافة إلى أنها هي الشخصية الأساس التي تنعكس عليها فاجعة فلسطين المأساوية.

وفي رواية البكاء على صدر الحبيب نصادف امرأتين عربيتين: فجر الأردنية ونهاد السورية، وكلتاهما انضمت إلى المقاومة الفلسطينية في الخارج، وعاشت ظروف القيادة الفلسطينية بكل سلبياتها التي كشفتها الرواية. وفجر الفتاة الأردنية، شاركت بالعمل المسلح، وتنقلت بين عدة عواصم عربية، أحبت صديقاً لها في المقاومة، و منحته كل شيء، ثم اكتشفت أنه مخادع ومراوغ، وأنه يعيش على دم الآخرين " **يمتص الثوريين الحقيقيين ويحولهم بدورهم إلى إسفنجات تمتص غضب غيرها**"[56]. ولكن بعد أن كان قد أفقدها عذريتها، على أمل الزواج القريب منها. تتعرف على زميلها زياد في المقاومة والسلاح وتحبه ويحبها، وعندما تشرح له ما أصابها من المسؤول القيادي، يقدّر وضعها ويعفو عنها "**-أنا متألم الآن، لا أريد أن أكذب عليك، أنا مقهور الآن ليس لأنكِ فقدتِ عذريتكِ مع ذلك القذر، إنني أشعر وكأنه اغتصب أمي أمامي، لقد أهانونا كثيراً. ولكن لكل شيء نهاية**"[57]، ثم ينتهي بهما المطاف إلى الزواج.

والمتأمل في شخصية فجر يلحظ أنها لا تختلف عن شخصية هناء، من حيث أن كلتيهما ضحية لمسؤولي القيادة، مع فارق معين. ففي حين أن هناء كانت منحلة أخلاقياً، ومضت معظم حياتها السابقة في الانحلال والتعهّر، نلحظ أن فجراً على نقيضها، إذ إن فجراً كانت موعودة بالزواج القريب جداً من هذا المسؤول، وسقطت هذه السقطة بدافع الزواج الوشيك، ولم تكن

(عاهرة) مثل هناء. وقد انعكس هذا الفارق بين الشخصيتين على المصير الذي لاقته كل واحدة منهما؛ ففي حين نلحظ أن الكاتب لم يغفر لهناء هذا السلوك المنحل، نراه يلتمس العذر لفجر، ويعفو عنها، ويمنحها فرصة أخرى للحياة عبر الزواج من زياد. وهكذا فالكاتب يرى أن القيادة الفلسطينية، بأخطائها وسلبياتها، تدفع بالشخصية الثورية التقدمية إلى الانحطاط والتدمير النفسي، وأن هذه الشخصية الثورية تصبح بشكل أو بآخر، ضحية سهلة لمسؤولي القيادة.

ومن جانب آخر نلحظ أنه يرفض انسياق الشخصية الثورية وراء هذه القيادة في هذا الدرب الانحطاطي، وإذا لم تتنبّه الشخصية الثورية لهذا المسار الخاطئ وتقوّمه، فإنها شخصية لا تستحق الحياة، كما لحظنا في شخصية هناء – أما إذا تنبهت الشخصية لهذا المسار الخاطئ، واتجهت نحو العناصر الثورية الصادقة، فلها فرصة أخرى جديدة في الحياة.

وقد كانت شخصية فجر ثابتة تمثل فكرة واحدة، ولم يدعها الكاتب تنمو بشكل طبيعي وحر، بحيث تعبر عن نفسها بنفسها، وإنما حصرها في زاوية واحدة من زوايا الصراع الفلسطيني. وحاول أن يربط من خلال شخصيتها بين الاسم والمسمى، بحيث سماها (فجر) لتشير إلى الأمل. تقول فجر لزياد عندما انتحر أحد زملائها في السلاح (أبو خليل): **(-لا تحزن كثيرا.الأمور صعبة ولكنها ليست سيئة تماما.هناك ضوء)**[58]، وهو أسلوب يتحفظ عليه النقاد، فليس بالضرورة المطابقة بين الاسم والمسمى – كما أشرنا من قبل -.

أما شخصية نهاد (السورية)، فهي شخصية حُشرت في الرواية حشراً، لتقول فكرة بعينها تتلخص في: إدانة المسؤول المستغل في القيادة (أبو سامر) وبيان نزاهتها وثوريتها. فهي ظهرت فجأة، واختفت فجأة، ولم ترتبط بالرواية ارتباطاً عضوياً[59]، ولو حذفت من الرواية نهائياً لما تغير شيء على سير الأحداث والشخصيات. فهي ليست أكثر من بوق مكشوف للكاتب لإدانة القيادة الفلسطينية بشكل عام.

أما شخصية المرأة اليهودية أو الصهيونية – في الروايات محور الدراسة – فلم يكن لها حضور كبير. فباستثناء رواية حفنة تراب يمكن القول: إن الروايات الثلاثة الأخريات قد غابت فيها شخصية المرأة اليهودية نهائياً.

أما في رواية حفنة تراب فقد تجسّدت الشخصية اليهودية في شخصية (سارة) خاصة، مع وجود دور هامشي للممرضة الصهيونية (كلارا). وسارة فتاة يهودية والدها من أصل عربي، وأمها صهيونية، توفي أبوها وعمرها سنة، فرفض أهل والدها الاعتراف بها، فحملتها أمها ورحلت بها إلى حيّ يهودي وعاشت معهم وتولوا رعايتها، وجدَ لها خالها عملاً في شركة صهيونية لشراء الأراضي، ثم عملت موظفة في إحدى المستعمرات الصهيونية. واستغلها الصهاينة لإغراء ثابت

ببيع أرضه، لكنها عندما تعرفت عليه أحبته حبا عميقاً، وأفصحت له عن مخططات الصهاينة للاستيلاء على أرضه، وعندما علم المجلس الأعلى للمستعمرة بهذا، استجوبوها وعذبوها عذاباً شديداً، ثم قتلوها وادعوا أنها أُصيبت بانهيار عصبي نتيجة محاولة المختار العربي (ثابت) الاعتداء عليها، مما أفضى بها في النهاية إلى الموت - على حد زعمهم -.

قدم الكاتب هذه الشخصية لأول مرة بواسطة بعض أساليب السرد مثل الحوار، ثم والى تقديمه لهذه الشخصية على دفعات عن طريق الحوار أيضاً، وترك الشخصية تقدم نفسها بنفسها. تقول سارة مخاطبة ثابتاً: **(- أريدك أن تعلم أولاً أنني لست من سكان المستعمرة الأصليين، وإنما أنا موظفة في إدارة المستعمرة فقط... وأنني قد ولدت في هذا البلد - وعلى التحديد – في مدينة القدس ! ولكنهم جاءوا بي إلى المستعمرة لأني أجيد اللغة العربية التي يحتاجون إليها في علاقاتهم مع القرى المجاورة... ثم سكتت (سارة) قليلاً قبل أن تقول :**

- وأريدك أن تعلم أيضا أنني لست صهيونية...

واستطردت على الفور:

- أنا يهودية.. هذا صحيح.. ولكني لست صهيونية: هل تفهمني؟

أنا ضد العصابات السرية الصهيونية كالهاجانا والأرجون: أنا أريد أن أعيش بسلام مع السكان العرب في هذه البلاد وأن يبقى يهود أوروبا في أوروبا... وتبقى فلسطين لأهلها..لنا...ولكم...)[60].

إن سارة تمثل الشخصية اليهودية المعتدلة التي تنادي بالسلام بين العرب واليهود، وهي ضد الوحشية الصهيونية وسفك الدماء والقتل، وضد الهجرة اليهودية إلى فلسطين، غير أن الكاتب قد استخدم هذه الشخصية اليهودية للتمييز بين اليهودية والصهيونية القائمة على مصّ الدماء واستغلال كل شيء في سبيل تنفيذ مخططاتها للاستيلاء على الأرض العربية. وفي سبيل تنفيذ هذه المخططات، فإن هذه الشخصية الصهيونية لا تتورّع عن التضحية حتى باليهودية نفسها، فما بالك بالنسبة إلى العرب!! ويتضح ذلك –خاصة – من خلال المصير الفاجع الذي لاقته سارة على أيديهم، عندما علموا أنها متعاطفة مع العرب.

ولعل هذا المصير الذي لاقته سارة يحمل أكثر من دلالة، فإضافة إلى أنه يكشف طبيعة الشخصية الصهيونية القائمة على الوحشية وسفك الدماء والاستغلال، فإنه قد يشير أيضاً إلى

إيمان الكاتب بعدم جدوى مثل هذه الطروحات السلمية بين العرب واليهود، ولا سيما في فشل الزواج بين سارة وثابت. إذ إن الكاتب يرى أن مثل هذه المحاولات للتواصل بين العرب واليهود مصيرها الفشل والموت، حتى مع أشد الفئات اليهودية تعاطفاً وصلةً مع العرب.

ولعل هذه الرؤية كانت – في وقتها- نبوءة مبكرة بفشل كل طروحات السلام بين العرب واليهود. ولعل معاهدة السلام بين العرب واليهود الحالية تؤكد وجهة نظر الكاتب. فالسلام لم يتحقق بين الطرفين، وهل يتحقق السلام بين الذئب والحمل ؟!

غير أن الكاتب قد حمّل هذه الشخصية أكثر مما تحتمل، فجعلها بوقاً بثّ من خلاله كل مفاهيمه للصهيونية واليهودية، ولكل طروحات السلام، والتواصل بين العرب واليهود، وقضية الهجرة اليهودية لفلسطين، وقضية الاستيلاء على الأرض، والأساليب الصهيونية القذرة في تنفيذ مخططاتها، وما تمتاز به هذه الشخصية الصهيونية من استغلال وتزوير ودموية، وما إلى ذلك.

وكل ذلك يقلل من واقعية هذه الشخصية اليهودية (سارة)، وكان بالإمكان أن تكون هذه الشخصية أكثر واقعية وحرية لولا المفاهيم التي أسقطها الكاتب عليها، وألزمها بترديدها.

An Analysis of the Primary and Secondary Role of the Woman in Palestinian Novels

Fathi Abu Murad, *Al-Huson College, Al- Balqa University, Irbid, Jordan.*

Abstract

This study aims at investigating and analyzing the character of the Palestinian woman in some Palestinian novels. Woman in Palestine play an important role in the struggling against occupation, so the Palestinian novels have a basic role in portraying this struggle.

The study makes a thorough examination about the role of the Palestinian woman in the Palestinian novel, both in its form and content. The study finds out that the woman plays the role of the hero in some novels, where as she appears as a follower in others. Some artistic characteristics are deeply observed in the character of the woman in Palestinian novels, how this character is created, the different images she appeared with, and to what extent the writer can charge her with energy, hints, and sense.

قدم البحث للنشر في 2011/7/12 وقبل في 2012/1/10

الهوامش

1 نجم، محمد يوسف، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، (د.ت): 64

2 انظر ويليك، رينيه واوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1981: 283

3 المصدر نفسه: 278-281

4 Forster. E. M. / Aspect of the Novel, first published, 1974, Edward Arnold, 25 Hill Street, London: 58

5 المصدر نفسه: 30

6 الفيومي، إبراهيم، دراسات في الرواية والقصة القصيرة، وزارة الثقافة، عمان، 1997: 38-39

7 ولسن، كولن، فن الرواية، ترجمة محمد درويش، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد، 1986: 205

8 الفيومي، إبراهيم، الواقعية في الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، دار الفكر، عمان، 1983: 68-69

9 انظر * نجم، محمد يوسف، فن القصة، دار الثقافة، بيروت، (د.ت): 98

* ويليك، رينيه واوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي: 285

10 Forster. E. M. / Aspect of the Novel, first published, 1974, Edward Arnold, 25 Hill Street, London :46-47

11 القواسمة، محمد عبد الله، البيئة الروائية في رواية الأخدود (مدن الملح)، دار الينابيع، عمان، 1998: 38

12 ويليك، رينيه واوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي: 286

13 المصدر نفسه: 286

14 انظر الشامي، حسان رشيد، المرأة في الرواية الفلسطينية (1965 – 1985)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998: 227-233

15 ويليك، رينيه واوستن وارين، نظرية الأدب، ترجمة محي الدين صبحي: 285

16 - المصدر نفسه: 285

17 - وادي، فاروق، ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1،1981: 34

18 ولسن، كولن، فن الرواية:259

19 المصدر نفسه: 96

20 انظر: النجار، سليم، قراءات في الرواية الفلسطينية الحديثة، رام الله، [فلسطين]: دائرة الإحصاء المركزية الفلسطينية، 1998: 5

21 ولسن، كولن، فن الرواية: 191
22 المصدر نفسه: 63
23 ويليك، رينيه واوستن وارين، نظرية الأدب: 281
24 أبو الشباب، واصف، صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1977: 47
25 انظر رشيد، هارون هاشم، سنوات العذاب عالم الكتب، ط1970،1: 124، 167
26 عودة، علي محمود، الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية (1952-1982)، رام الله، فلسطين، 1990: 35
27 ولسن، كولن، فن الرواية: 85
28 كنفاني، غسان، رجال في الشمس، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط3، 1986: 18-19
29 المصدر نفسه: 93
30 ويليك، رينيه واوستن وارين، نظرية الأدب: 281
31 الشامي، حسان رشيد،المرأة في الرواية الفلسطينية (1965 – 1985)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998: 21
32 النشاشيبي، ناصر الدين، حفنة تراب، ط1، 1965: 17
33 المصدر نفسه: 19
34 المصدر نفسه: 15
35 المصدر نفسه: 35
36 انظر المصدر نفسه: 38،37، 88، وغيرها
37 انظر المصدر نفسه: 46
38 الشامي، حسان رشيد، المرأة في الرواية الفلسطينية:22
39 انظر الفيومي، إبراهيم، الواقعية في الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، دار الفكر، عمان، 1983: 166
40 انظر رشيد، هارون هاشم، سنوات العذاب: 80-82
41 انظر المصدر نفسه: 178
42 انظر المصدر نفسه: 66، 67، 100، 101، 132، 208، وغيرها
43 انظر المصدر نفسه:6
44 انظر المصدر نفسه:48
45 انظر المصدر نفسه:48، 50

46 انظر المصدر نفسه: 128
47 انظر المصدر نفسه:118
48 انظر المصدر نفسه: 97
49 انظر المصدر نفسه: 124
50 أبو الشباب، واصف، صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة:71
51 انظر رشيد، هارون هاشم، سنوات العذاب: 208
52 انظر المصدر نفسه: 219
53 أبو شاور، رشاد البكاء على صدر الحبيب، اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين، بيروت، ط1، 1974: 79
54 أبو الشباب، واصف، صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة:57-58
55 انظر أبو شاور، رشاد، البكاء على صدر الحبيب:91
56 انظر المصدر نفسه: 41
57 المصدر نفسه: 58
58 المصدر نفسه:66
59 انظر: أبو الشباب، واصف، صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة:57
60 النشاشيبي، ناصر الدين، حفنة تراب:41

المصادر والمراجع

الأشتر، عبد الكريم، **دراسات في أدب النكبة (الرواية)**، دار الفكر، ط1، 1975

أبو أصبع، صالح، **فلسطين في الرواية العربية**، مركز الأبحاث، منظمة التحرير الفلسطينية، 1975.

أبو شاور، رشاد، **البكاء على صدر الحبيب**، اتحاد الكتاب والصحافيين الفلسطينيين، بيروت، ط1، 1974.

أبو الشباب، واصف، **صورة الفلسطيني في القصة الفلسطينية المعاصرة**، دار الطليعة، بيروت، ط1977،1.

أبو مطر، أحمد عطية، **الرواية في الأدب الفلسطيني (1950-1975)**، وزارة الثقافة والإعلام، العراق، 1980.

خليل، إبراهيم، **في القصة والرواية الفلسطينية**، دار ابن رشد، عمان، 1984.

درّاج، فيصل، **دلالات العلاقة الروائية**، مؤسسة عيبال للدراسات والنشر، ط1992،2.

رشيد، هارون هاشم، **سنوات العذاب**، عالم الكتب، ط1970،1.

الشامي، حسان رشيد، **المرأة في الرواية الفلسطينية (1965 – 1985)**، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1998.

عاشور، رضوى، **الطريق إلى الخيمة الأخرى**، نسخة مصوّرة وقعت عليها لا تحمل تاريخاً .

عودة، علي محمود، **الزمان والمكان في الرواية الفلسطينية (1952-1982)**، رام الله، فلسطين، 1990.

الفيومي، إبراهيم:

* دراسات في الرواية والقصة القصيرة، وزارة الثقافة، عمان، 1997.

* الواقعية في الرواية العربية الحديثة في بلاد الشام، دار الفكر، عمان، 1983.

القواسمة، محمد عبد الله، **البيئة الروائية في رواية الأخدود (مدن الملح)**، دار الينابيع، عمان، 1998.

كنفاني، غسان، **رجال في الشمس**، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط1986،3.

ماضي، شكري عزيز، **انعكاس هزيمة حزيران على الرواية العربية**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1978.

النجار، سليم، **قراءات في الرواية الفلسطينية الحديثة**، رام الله، [فلسطين]: دائرة الإحصاء المركزية الفلسطينية، 1998.

نجم، محمد يوسف، **فن القصة**، دار الثقافة، بيروت، (د.ت).

النشاشيبي، ناصر الدين، **حفنة تراب**، (د-م)، ط1، 1965 .

وادي، فاروق، **ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية**، عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر،
ط1: 1981.

ويليك، رينيه واوستن وارين، **نظرية الأدب**، ترجمة محي الدين صبحي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت،1981.

ولسن، كولن، فن الرواية، ترجمة محمد درويش، دار المأمون للترجمة والنشر، بغداد،1986.

Forster. E. M. Aspect of the Novel, first published, 1974, Edward Arnold, 25 Hill Street, London.